مقدمة المرزوقي

لشرح لحماسة أبي تمام

شرح هذه المقدمة وضبطها

— ٥ —

قال (وجزالة اللفظ واستقامته) .

كثر في كلام أئمة النقد وصناعة الانشاء والشعر ذكر وصف الجزالة في محاسن الألفاظ وقد عدّها المؤلف في محاسن المعاني أيضاً إذ قال [1] « فطلبوا المعاني المعجبة من خواص أماكنها وانتزعوها جزلةً عذبة » .

ولم أرَ منهم من أفصح عن مقومات هذا الوصف وشرائط حصولها وأنا أبذل مبلغ جهد الفكر في الكشف عن مفاد هذا الوصف وأقدم ماهو منه وصف للفظ ثم أتبعه بما هو منه وصف للمعنى على سبيل الاستطراد وإكمالاً للفائدة .

فأما الجزالة فهي وصف للفظ مأخوذ من صفات الناس إذ الجزالة في الإنسان هي جودة رأيه وكمال عقله ، فبها يكون كامل الانسانية ـ وهي في اللفظ عرّفها ابن مكرم في لسان العرب فقال : « الكلام الجزل : القويُّ الشديد ، واللفظ الجزل خلاف الركيك » .

وظاهر أن مرجع هذا الى معنى اللفظ المركب أو المفرد لا الى مبناه وصورته فليست الجزالة تنافر الحروف ولا تنافر الكلمات ولا غرابة الكلمة .

---

(١) صفحة ٨٦ من النشرة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فلنتطلب حقيقة الجزالة عند أيمة النقد ونتقصها من آثار كلامهم ونتعرفها من تعرف ضدها الذي يقابلونها به فابن رشيق في العمدة ذكر الجزالة وعطفها على الفخامة عطفاً يظهر منه أنه أراد به التفسير قال[1] «منهم قوم يذهبون الى فخامة الكلام وجزالته على مذهب العرب من غير تصنع كقول بشار:

إذا ما غضبنا غضبةً مُضريّةً هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما

وقال[2]: «وشبّه قومٌ أبا نواس بالنابغة لما اجتمع له من الجزالة مع الرشاقة» ووصف عبد القاهر الجزالة فقال[3]: «من البراعة والجزالة وشبهها مما ينبيءُ عن شرف النظم».

وقال[4] عند ذكر النظم «أن تقتفي في نظم الكلم آثار المعاني وترتيبها على حسب ترتيب المعاني في النفس». وذكر ابن شرف القيرواني في رسالة الانتقاد[5] «الجزالة فقال عند ذكر لبيد «شعره ينطق بلسان الجزالة عن جنان الاصالة، فلا تسمع إلا كلاماً فصيحاً، ومعنى مبيناً صريحاً»[6].

وقال في ابن هاني الأندلسي: «إلا أنه اذا ظهرت معانيه في جزالة مبانيه رمى عن منجنيق، يُؤثّر في النيق»[7] فجعل الجزالة وصفاً للمباني أي الألفاظ. وقال ابن الأثير في المثل السائر في المقالة الأولى في الصناعة اللفظية[8]: «قد جاءت لفظة واحدة في آية وفي بيت فجاءت في القرآن جزلةً متينة وفي

(١) صفحة ٨٠ من طبعة أمين هندية بمصر.
(٢) صفحة ٨٥ من تلك الطبعة.
(٣) صفحة ٤٦ من كتاب دلائل الإعجاز طبع مطبعة المنار.
(٤) صفحة ٣٩ من الكتاب المذكور.
(٥) طبع مصطفى البابي الحلبي بمصر سنة ١٣٣١ في مجموعة رسائل البلغاء.
(٦) صفحة ٢٤٤ من مجموعة رسائل البلغاء نشر الأستاذ محمد كرد علي طبع البابي بمصر سنة ١٣٣١.
(٧) صفحة ٢٥١ من مجموعة الرسائل المذكورة.
(٨) صفحة ٨٨ طبع بولاق سنة ١٢٨٢.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الشعر ركيكة ضعيفة فأثر التركيب في هذين الوصفين الضدين أما الآية فقوله تعالى : «ان ذالكم كان يؤذي النبي» وأما البيت فقول أبي الطيب :

تلذُّ له المروءةُ وهي تؤذي ومن يعشقْ يَلذّ له الغرامُ

وقال أبو البقاء العكبري في كلياته «الجزالة إذا أُطلقت على اللفظ يراد بها نقيض الرقة» اهـ . وقلتُ قد رأيتهم يقابلون الجزالة مرةً بالرقة ومرةً بالركاكة ومرةً بالضعف ومرةً بالكراهة فتحصل لنا من معنى الجزالة أنها كون الألفاظ التي يأتي بها البليغ الكاتب أو الشاعر ألفاظاً متعارفة في استعمال الأدباء والبلغاء سالمةً من ركاكة المعنى ومن أثر ضعف التفكير ومن التكلف ومما هو مستكره في السمع عند النطق بالكلمة أو بالكلام فهذه الجزالة صفة مدح وقد مثّلوا للركاكة بقول بعضهم :

يا عُتْبَ سيدتي أما لكِ دِينُ حتى متى قلبي لديكِ رهينُ
فأنا الصبورُ لكل ما حملتني وأنا الشقي البائسُ المسكينُ

وفيه ركاكة من جهات منها كون المعنى أجوف دائراً بين جميع العامة وكون جل الألفاظ مرذولاً وذكر البائس والمسكين بعد الشقي وفي الشقي ما يغني عنهما .

ومن الركاكة قول الخوارزمي يخاطب بديع الزمان الهمذاني :

وإذا قرضتُ الشعر في مَيدانه لا شك أنك يا أخي تتشقق[1]

فقوله في ميدانه لا موقع له وقوله يا أخي لا مقام له لأن الكلام في مقام مناظرة ومشادة .

وإذا قابلوا الجزالة بالرقة فانما يريدون بها نسج الكلام على منوال القدماء في الشدة والقوة كقول أشجع :

وعلى عدوِّك يا بنَ عم محمدٍ رَصدان ضوءُ الشمس والإظلامُ
فاذا تنبه رُعْتَه وإذا غفا سَلَّتْ عليه سيوفَك الاحلامُ

(١) مناظرته مع بديع الزمان المثبتة في رسائل البديع طبع الجوايب بالاستانه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ويريدون بالرقة نسجه على منوال المحدثين في اللين والظرف وأظهر مثال جمع هذين الوصفين قول جميل :

ألا أيها الشوّام ويحكم هبوا أسائلكم هل يقتل الرجلَ الحُبُّ

قال بعض أئمة الأدب «هذا البيت أوله اعرابي في شمله وآخره مخنث من مخنثي العقيق يتفكك» .

ألا ترى ان قوله ويحكم من كلمات التعجب وهي جزلة فلو قال أفديكم لاعتاض عن الجزالة بالرقة . وقد تقال الجزالة في هذا الإطلاق على الكلام الذي يصدر في أغراض تناسبها الشدة كالرثاء والحماسة وتقال الرقة على كلام في أغراض يناسبها اللين واللطافة كالنسيب والزهريات والملح . والجزالة في هذا كله من صفات الألفاظ باعتبار المعاني ويظهر تصرف البليغ في صناعتها بالخصوص في صوغه المعاني التي يصوغها في نفسه من مجاز واستعارة وتمثيل وتشبيه وكناية وأنواع البديع . وأما المعاني الوضعية فتأتي بطبع سياق الكلام وتأتي الألفاظ تبعاً للمعاني .

وأما استقامة اللفظ فهي وصف نسبي بعرض للفظ في حين انتظامه في الكلام فان للألفاظ معاني موضوعة لها ولها معان كثر استعمالها فيها ولها معان يستعملها المتكلم فيها على وجه المجاز أو الاستعارة أو الكناية أو نحو ذلك فاستقامة اللفظ هي وفاؤه بالمراد الذي استعمله فيه البليغ دون خطأ ولا تقصير ولا غموض . فمن الاستقامة السلامة من التعقيد المعنوي أو السلامة من الخطأ في استعمال اللفظ إما لقصور في معرفة اللغة وإما لغفلة كاستعمال اللفظ الدال على الأعم في حين إرادة الأخص . وفي بعض هذا المقصد ألفت الكتب المنبهة على أخطاء الخاصة مثل درة الغواص للحريري وقد أشار المؤلف الى هذا بقوله الآتي «وعيار اللفظ الطبع والرواية والاستعمال . وقوله : وهذا في مفرداته وجملته مراعى» .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(والإصابة في الوصف) المراد بالوصف معناه المصدري وهو التصوير والايضاح قال تعالى « وتصف ألسنتهم الكذب » وليس المراد ما يرادف الصفة من نحو النعت والحال لأن ذلك أخص من المقصود هنا . فإصابة الوصف هي أن يصور المتكلم ما أراد التعبير عنه من المعنى تصويراً مطابقاً لما عليه الشيء الموصوف في الخارج والواقع من غير انعكاس ولا انتقاض ، وضد إصابة الوصف الخطأ فيه كلاً وهو الغلط أو بعضاً وهو العيب أي عيب النقص في التوصيف . والشاعر أكثر تعرضاً لهذا من الكاتب لأن الشاعر يكثر منه تخيل المعاني عن غير مشاهدة فربما أخطأ في تخيله أشياء لم يعتد الإحاطة بصفاتها أو خفي عنه بعض ما يدق من مشاهدته إياها . وقد عُدَّ بشار بن برد من أعجوبات الشعراء إذ كان مع عماه لا يكاد يخطئ في الأوصاف الدقيقة وحسبك بيته المشهور :

كأنَّ مُثارَ النقع فوقَ رؤوسنا وأسيافَنا ليلٌ تهاوَى كواكبه

(ومن اجتماع هذه الأسباب الثلاثة كثرت سوائر الأمثال وشوارد الأبيات) أي ان ما استوفى من النثر والشعر هذه الأسباب الثلاثة فيه توجد الأمثال السائرة والأبيات الشاردة فكثرت في المآثر الأدبية في الجاهليين والمولدين فالأمثال موجودة في الشعر بأن يكون المصراع أو جزء منه سار مثلاً كقول أبي أخزم الطائي « شنشنة أعرفها من أخزم » وقبله :

إنَّ بَنيَّ رَمَّلُوني بالدَّمِ من بلقَ أبطَالِ الرجالِ يُكلم

وقول بشر بن أبي حازم « أحقُّ الخيل بالركض المعارُ » من أبيات انظرها في مجمع الأمثال في باب الحاء . وأما ما كان بيتاً كاملاً يتمثل به الأدباء فذلك لا يسمى مثلاً وإنما يسمى تمثلاً . ومعنى السائرة الفاشية بين أهل اللسان فشبه الفشو بالتنقل في أمكنة كثيرة بجامع تكرر عروضه للحواس وهو السير وفي الكشاف : « ولم يضربوا مثلاً ولا رأوه أهلاً للتسيير ولا جديراً بالتداول

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والقبول إلا قولاً فيه غرابة من بعض الوجوه ومن ثم حوفظ عليه وحمي من التغيير» . وأراد بالغرابة أنه قول زائد على المعتاد خصائص فيه دقيق المعاني وخفة اللفظ مع وفرة المعنى .

وأما شوارد الأبيات فهي الأبيات البالغة مبلغاً من صحة المعنى وجزالة اللفظ وإصابة المعنى المفاد منها وأطلق المؤلف عليها وصف الشوارد لعزة هذا النوع فشبهه بالوحش الشارد في حال كونه مطلوباً مرغوباً فيه لقانصه فتلك الرغبة هي المقصود للمؤلف فاستعار لها الشوارد لهذه المناسبة تمثيلاً للحالة . وإنما جعل المؤلف قوام سوائر الأمثال وشوارد الأبيات هو اجتماع هذه الأسباب الثلاثة دون سبب مقاربة التشبيه ومناسبة الاستعارة لأن كثيراً من الأمثال والأبيات خلو من التشبيه والاستعارة كمثل «لأمرما جدع قصير أنفه» وبيت امرئ القيس

«قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ» البيت .

وقوله سوائر وشوارد جمع سائر وشارد لأن المثل والبيت مذكران فجمعه على وزن فواعل إما على تأويل المثل والبيت بمعنى الكلمة وإما على وجه الشذوذ كما قالوا فوارس وعواذل .

(والمقاربة في التشبيه) عطف على قوله والإصابة في الوصف . المقاربة القرب الشديد لأن صيغة المفاعلة فيه للمبالغة إذ ليس المراد قرب كل من طرفي التشبيه من الآخر في الوصف فان التشبيه إلحاق ناقص بكامل في وصف ، وأما مايسمى بالتشابه كالذي في قول الصابئ :

تشابَهَ دمعي إذ جرى ومدامتي فمِن مِثلِ مافي الكاس عيني تسكبُ

فذلك غلو في التشبيه يقرب من التشبيه المقلوب كما في قول محمد بن وهيب :

وبدا الصباح كأنّ غرته وجهُ الخليفةِ حين يمتدحُ

قال قدامة في نقد الشعر «فأحسن التشبيه ما أوقع بين شيئين حتى يدنى بهما الى حال الاتحاد اهـ» . وشدة القرب هي قوة وجه الشبه في المشبه بحيث يستغني

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

المشبه عن ذكر وجه الشبه . وليس المراد بالمقاربة تمام المماثلة بين المشبَّه والمشبَّه به في جميع الصفات بل قوة المشابهة في وجه الشبه ولذلك كان من محاسن التشبيه الاستدراك فيه باستثناء ما لا مشابهة فيه من صفات المشبه به لكون المشبه أعلى من ذلك كما قال المعري :

تنازع فيك الشبه بحر وديمة ... ولستُ الى ما يزعمون بمائلِ

إذا قيل بحرٌ فهو ملحٌ مكدرٌ ... وأنت نمير الجودِ حلوُ الشمائل

ولستَ بغيث فوك للدرّ معدن ... ولم يُلف درٌّ في العيون الهواطل

والمراد بالتشبيه في كلام المؤلف ما كان بأداة شبه أو كان تشبيهاً بليغاً لأنه عند المحققين من نوع التشبيه لا من الاستعارة . وأما الاستعارة فيخصها بالذكر .

(والتحام أجزاء النظم والتئامها على تخير من لذيذ الوزن) قال الجاحظ [1] : « أجود الشعر ما رأيته متلائم الأجزاء ، سهل المخارج فتعلم بذلك أنه أفرغ إفراغاً واحداً اهـ » .

والالتحام مطاوع لَحَم الثوب يلحمه اذا نسج لحمته بضم اللام وبفتحه وهي ما يثني به الحائك نسج الثوب فيجعله أعلى فوق السَّدَى الذي هو أسفل النسج وفي الحديث الولاء لُحمة كلُحمة الثوب كذا في رواية فالالتحام أن تكون الكلمات بعد نظمها كالشيء الواحد وأجزاء النظم كلماته .

والالتئام مطاوع لأَمه اذا جعله متلائم الأجزاء أي مناسباً موافقاً بأن تكون كلمات النظم متناسبة بحيث لا يكون في النطق بها بعد اجتماعها ما يثقل على اللسان فان الكلمة قد تكون في ذاتها غير ثقيلة فاذا ضمت الى غيرها لم تتلاءما وثقلتا على اللسان فلا يستطيع تخفيفه ومثاله المشهور في بحث الفصاحة قولُ مَن لا يُعرف « وليس قربَ قبرِ حربٍ قبرُ » وقول أبي تمام :

(١) انظر الممتعة ص ١٧١ جزء أول .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

« كريمٌ متى أمدحه أمدحه والورى معي » البيت . وانما قلت فلا يستطيع تخفيفه احترازاً من نحو قول البحتري : « أأفاق صَبٌّ من هوًى فأفيقا » . فان اجتماع الهمزتين ثقيل يمكن التخلص من ثقله بتسهيل احدى الهمزتين .

وقوله « على تخير من لذيذ الوزن » على فيه بمعنى مع وأراد بالوزن وزن الشعر وهو ما يسمى بالبحر في اصطلاح العروضيين وما فيه من أعاريض وضروب . وقد بين المؤلف فيما يأتي من كلامه هذا القيد بقوله « وإنما قلنا على تخير من لذيذ الوزن لأن لذيذه يطرَب الطبعُ لابقاعه ويمازجه بصفائه كما يطرَب الفهم لصواب تركيبه واعتدال نظومه » . وكأنّ المؤلف يشير الى أمرين : أحدهما مزية الشعر العربي باشتراط العرب الوزن فيه بحيث لا يكون الكلام شعراً ما لم يكن له وزن خاص . وثانيهما الإشارة الى تجنب الأعاريض والضروب الثقيلة والزحاف والعلة الجائزين المؤثرين ثقلاً في انتساب الحركات والسواكن من الميزان فيصير كالعثار في السير وقد يحصل من تجمع الكثير من ذلك ما يوشك أن يخرج الشعر من كونه شعراً الى كونه نثراً كما في أبيات من مجمهرة عَبيد بن الأبرص التي أولها :

عيناك دمعها سَروب كأنّ شأنيْهما شعيب

وقد قرن المؤلف تخير لذيذ الوزن بالتحام الأجزاء والتئامها لأنهما من وادٍ واحد على أن بعض العروض في بعض الموازين لا يخلو من ثقل مثل الضرب الثاني المقطوع من بحر المنسرح[1] : وبعضها من بعض العروض يكون أشبه بالسجع منه بالشعر مثل عروض المجتث المكفوف[2] وأمثلة من استوفى هذا الشرط الذي ذكره المؤلف من الشعر كثيرة وإن شئت فانظر شعر عمر بن أبي ربيعة كقوله :

---

(١) هو مستفعلن مفعولات مستفعلن مستفعلن مفعولات مفعولن

(٢) كقوله : ما كان عطاؤهن أعدة ضمارا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أمن آل نُعْمٍ أنت غادٍ فمبكر غداة غدٍ أم رائح فمهجّر

(ومناسبة المستعار منه للمستعار له) .

المناسبة شدة الانتساب وأراد بها قوة المشابهة وقد خص المؤلف الاستعارة بهذا الشرط ولم يدمجها في شرط مقاربة التشبيه مع أن الاستعارة من قبيل التشبيه ، لأن الاستعارة مبنية على تناسي التشبيه وعلى ادعاء أن المستعار له من جنس المستعار منه فكانت لذلك جديرة بتمام المشابهة بين المستعار له والمستعار منه ولما كانت الاستعارة تتفرع الى مصرحة ومكنية وتخييلية وتمثيلية وكان منها أصلية وتبعية ومنها مرشحة ومجردة ومطلقة ، كانت دقة التشبيه فيها أحق وأولى من مطلق التشبيه ليحسن وقع كل قسم من هؤلاء في موقعه .

قال في دلائل الاعجاز [1] : « وأما الاستعارة فسبب ما ترى لها من المزية انك اذا قلت رأيت أسداً كنت قد تلطفت لما أردت إثباته له من فرط الشجاعة وذلك انه اذا كان أسداً فواجب أن تكون له تلك الشجاعة العظيمة وإذا صرحت بالتشبيه فقلت رأيت رجلاً كالأسد كنت قد أثبتها إثبات الشيء يترجح بين أن يكون وبين أن لا يكون اه . » ويجب أن لا يغفل الشاعر عن استعارته فينقضها كقول أبي تمام :

تحملتُ ما لو حمل الدهرُ شطرَه لفكّر دهراً أي عِبئيه أثقلُ

فانه لما جعل الدهر بمنزلة الانسان المفكر كان عليه أن لا ينقض ذلك بأن يجعل لتفكيره مدةً يسميها دهراً فتصير مدته هي عينه .

(ومشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما) المشاكلة المماثلة إذ الشكل الشِبْه والمثل . وأراد بالمعنى هذا الغرض المفاد بألفاظ التركيب لا المعنى الموضوع له اللفظ لأن المعنى الموضوع له لا يتصور فيه اشتراط مشاكلة بينه وبين اللفظ الدال عليه . فالمراد أن الغرض الشريف تناسبه الألفاظ

(١) صفحة ٥٦٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الموضوعة لمعان حميدة وأن الغرض الخسيس تناسبه الألفاظ الموضوعة للمعاني الخسيسة سواء كانت المعاني حقيقية ام كانت مجازية ومستعارة : فمقام المديح والرثاء مثلاً يناسبه المعاني الحميدة ومقام الهجاء يناسبه المعاني الذميمة كما في مقذعات شعر بشار بحيث لا يحسن أن يستعمل اللفظ الذي يفيد معنى حميداً في غرض خسيس وهذا ما اقتضاه قول المؤلف فيما يأتي في عبارة مشاكلة اللفظ للمعنى « وكان اللفظ مقسوماً على رتب المعاني قد جعل الأخص للأخص والأخس للأخس فهو البريء من العيب » . وقال الجاحظ في البيان جاء رجل الى محمد ابن حرب الهلالي يقوم فقال « إن هؤلاء الفساق ما زالوا في مسيس هذه الفاجرة » فقال محمد بن حرب « ما ظننت أنه بلغ من حرمة الفواجر ما ينبغي أن يكنى عن الفجور بهنّ » يعني حيث كني بلفظ المسيس . وقال ابن زيدون في رسالته الى الوزير أبي عامر ابن عبدوس الطامع في صحبة ولأدة خليلة ابن زيدون « الساقطُ سقوطَ الذباب على الشراب » . وفي ذلك قول المتوكل عُمر بن الأفطس صاحبِ بَطَلْيَوس يستدعي الوزير أبا طالب بن غانم أحد ندمائه ليحضر الى الأنس في روض :

أقبِلْ أبا طالبٍ الينا وقَعْ وقوعَ النَّدى علينا[1]

ومعنى شدة اقتضائها للقافية أن يكون غرض البيت وألفاظه يستدعيان اللفظ الذي يقع قافيةً له استدعاءً شديداً أي قوي المناسبة حتى تجيء كلمة القافية كالموعود المنتظر فلا تكون مغتصبة متكلفة الوضع في مكانها ، والقافية أراد بها هنا الكلمة الأخيرة من كل بيت وهذا مأخوذ من كلام الأخفش[2]

(١) أنشده في قلائد العقيان في ترجمة قائل البيت وبطليوس من بلاد الأندلس .

(٢) هذا هو الذي جرت عليه عبارات الأدباء وأما القافية التي يضاف اليها علم القوافي فهي ما يتعرض له علم القوافي من أحكام آخر البيت وهي الساكنان اللذان في آخر البيت مع ما بينهما من حروف متحركة ومع المتحرك الذي قبل الساكن الأول .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

قال الصفدي في شرح لامية الطغرائي «القافية المتمكنة هي التي يبنى البيت من أوله الى آخره عليها فاذا ختم البيت نزلت في مكانها متمكنة قد رسخت في قرارها بخلاف القافية القلقة التي اجتلبت لتمام الوزن ومتى غيرت القافية المتمكنة بغيرها جاءت نافرةً عن الطباع وزعم بعضهم أن بعض الشعراء غيّر قوافي لامية الطغرائي من اللام الى حرف العين وهذا عندي يتعذّر لأن ألفاظ هذه القصيده في غاية الفصاحة وقوافيها في غايه التمكن اهـ» .

وقد ذكر أبو العلاء في رسالة الغفران أن خلفاً الأحمر أنشد بمجلسه قولُ النمر بن تولب :

ألمّ بصحبتي وهمُ هجوع خيالٌ طارقٌ من أم حِصنِ
لها ما تشتهي عسلاً مصفى اذا شاءت وحوّارَى بسَمْن

فقال لهم خلف لو قال النمر في موضع أمّ حصن أم حفص ما كان يقول في البيت الثاني فسكتوا فقال خلف «وحوارى بلحص» يعني الفالوذج . ثم إن المعري أخذ يفرض أن تغير قافية البيتين على جميع حروف المعجم على تقدير تغيير كنية أم حصن بحرف غير النون فكانت القوافي متفاوتة في اقتضاء البيت إياها [1] .

وقوله «حتى لا منافرة بينهما» أي بين المعنى ولفظه وبين القافية وهذه المنافرة كقول أبي عدي القرشي في قصيدة دالية :

ووُقِيتَ الحتوفَ من وارثٍ وا لٍ وأبقاك سالماً ربُّ هودِ

فليس لهود مناسبة بالمعنى ولكنه اجتلب لأجل الروي فهو قافية مقتضبة . وأعلى اقتضاء البيت للقافيه أن تكون القافية كالموعود به المنتظر كما سيأتي في كلام المؤلف .

(١) صفحات «١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦» رسالة الغفران طبع أمين هندية بالقاهرة سنة ١٣٢١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

(فهذه سبعة أبوابٍ هي عمود الشعر) سماها أبواباً لأن كل واحدٍ منها يعتبر عنوان باب من أبواب فن النقد لو شاء أحدٌ تبويبه وقد عملت بعض ذلك .

والعمود عود عظيم يركز في الأرض تقام عليه القبة أو الخيمة وتشد بأعلاه ويتفرع منه أديم القبة أو ثوب الخيمة ألى أن تشدّ بالأرض بالأوتاد على شكل قبةٍ أو هرم ، فما به قوام الشعر فهو كالعمود للبيت وقد وقعت هذه العبارة للحَسَن الآمدي في الموازنة وساق في كلامه ما محصله : ان عمود الشعر هو الأسلوب الذي سلكه فحول الشعراء من عهد الجاهلية وما بعده في بلاغة الكلام وإحسانِ المعاني والبعدِ عن التكلف وتجنب استكراه الألفاظ والمعاني وذكر عن البحتري أنه سئل عن طريقته وطريقة أبي تمام فقال البحتري : «أنا أقوم بعمود الشعر وأبو تمام كان أغوص على المعاني» فبين أنه امتاز عن أبي تمام بإجادة الناحية اللفظية من شرائط الإجادة وأن أبا تمام امتاز بالناحية المعنوية . فتحصل أن عمود الشعر هو مجموع شرائط الإجادة اللفظية والمعنوية وهو الذي اعتمده المؤلف .

(ولكل بابٍ منها معيار) المعيار اسم آلةٍ للتعيير . والتعيير تحقيق الوزن أو الكيل على ميزانٍ أو مكيال محقق المقدار مضبوط لا زيادة فيه ولا نقصان عن المقدار الذي يستعمل له يقال عيّر الدينار إذا وزنه بدينار محقق الوزن وعير المكيال كذلك ويقال لما به الكيل أو الوزن معيار وعِيار أيضاً كما سيجيء في عبارة المؤلف ومعنى كلامه أن لكل باب منها ضوابط ورسوماً بها يكون الشعر حسناً مقبولاً ومميزاً عن القبيح المردود عند أهل النقد مع بيان ما به إدراك تمييز الحسن من السيء وهذا المعيار هو كقول علماء المعاني ان تمييز الفصيح من غير الفصيح بعضه يبيّن في علم اللغة أو التصريف وبعضه يدرك بالحس فظهر أن المعيار مجموع الشروط وطريقُ إدراكها .

(فمعيار المعنى أن يعرض على العقل الصحيح والفهم الثاقب) أي ضابط المعنى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

المشروط فيما تقدم بالشرف والصحة . يعني أن الوسيلة لتحصيل ملكة الحكم في استيفاء المعنى ما شرط فيه هي أن يعرض المعنى على العقل الصحيح أي الفكر المستقيم والفهم الثاقب وهو الفهم الذي لا تخفى عليه دقائق المعاني ولا تلتبس عليه الحقائق المتقاربة ، شبه بآلة الثقب إذ تخترق الأجسام الصلبة وهو يغوص الى الحقائق التي يعسر فهمها على غالب الأذهان . ومراده عقل الشاعر وفهمه وهو المقصود ومثله الكاتب وكذلك عقل السامع الذي هو من أهل الذوق والنقد والاختيار .

(فاذا انعطف عليه جنبتا القبول والاصطفاء مستأنساً بقرائنه خرج وافياً والا انتقص بمقدار شوبه ووحشته) .

قوله فاذا انعطف عليه تفريع على أن يعرض على العقل الصحيح أي فاذا انعطف عليه جنبتا قبول العقل الصحيح والفهم الثاقب إياه واصطفائه له خرج وافياً الخ ... وأراد بهذا إعادة التنبيه على أن المعنى لما كان غير مستغنٍ عن كلام يقع فيه فجودة المعنى مفتقرة الى جودة الكلام الذي يدل عليه .

واستعار الانعطاف الذي حقيقته الميل والمحبة الى معنى الرضى به والموافقة أي فاذا صادف المعنى من نفس عقل الشاعر صاحب الذوق المكين وفهمه قبولاً ورضىً فذلك المعنى وافٍ بشرط الكمال لنوعه وهو الصحة والشرف والجنبتان تثنية جنبة بسكون النون وفتحها. وهي الجانب أي اذا وافقه جانبا القبول والاصطفاء ووقع في نسختيْ تونس ونسخة الأستانة جُبَّتا القبول تثنية جبة. وهي ثوب له جيب وكان يلبس فوق الثياب الداخلية ونسخة جنبتا أولى وهي مماثلة لقول أبي العباس المبرد في أول باب من الكامل في اللفظ الغريب إذ قال : « فاذا انعطفت عليه جنبتا القبول غطتا على عُوّاره الخ »[1] . وإضافة جنبتا أو جنبا الى القبول

(١) انظر صفحة ١٧ طبع المطبعة الخيرية سنة ١٣٠٨ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والاصطفاء إضافة بيانيه لان المضاف عين المضاف اليه . واستعارة جنبتا للقبول والاصطفاء لأن القبول والاصطفاء أشبها جانبين يحيطان بالمعنى وبحضنانه . واستعارة جبتا لها لأنها أشبها ما يكتسي به المعنى بهجة . وقد أشار بالقبول الى صحة المعنى لأن المعنى لا يقبل إلا أذا كان صحيحاً وكني بالاصطفاء عن شرف المعنى لأنه إذا جاء شريفاً كان مرضياً في نفس المخترع فيما يقوله والسامع فيما يسمع والناقد فيما يختار . وقوله مستأسناً بكسر النون حال من ضمير عليه ويجوز فتح النون أيضاً على معنى أن قائله اصطفاه وقبله واستأنس بما معه .

والاستئناس التأنس وهو ضد الوحشة وكني به هنا عن المماثلة لأن المماثلة تستلزم التأنس بالمثل إذ الشيء يألف مثيله فالمراد المماثلة في الصفة بين المعنى المقبول المصطفى وبين ما يقترن به من المعاني حتى يكون الكلام كله مفرغاً في قالب واحد من الكمال ولا يكون بعض معانيه مقبولاً وبعضها مكروهاً وذلك ما سماه رؤبة بالقران كما سيأتي . والقرائن جمع قرينة من الاقتران وهو الاجتماع وأنث القرائن على تأويله بالكلمات ، بمقدار ما يقترن بالمعاني المرتضاة من معان مكروهة يتنقص الكلام نقصاً قليلاً أو كثيراً ويوحش السامع والناقد .

(وعيار اللفظ الطبع والرواية والاستعمال) .

يعني اللفظ الذي وصفه آنفاً بالجزالة والاستقامة . أي وسيلة اختبار تحقق ذينك الوصفين فيه ثلاثة أشياء :

الأول : الطبع وهو طبع البليغ وذوقه ودربته الحاصلة من كثرة مزاولة الكلام الفصيح ومعرفة دقائق الاستعمال العربي حتى تحصل له من ذلك ملكة يميز بها بين اللفظ المقبول المستحسن واللفظ المجفو المستنكر فينتقي ما يستحسن وينبذ ما يستكره .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والثاني : الرواية وهي رواية ذلك اللفظ فيما يروى عن العرب وأئمة الاستقراء ليعلم بذلك مواقعه من الكلام الفصيح فيتضح معناه عندهم فيكون صريحاً فيه .

والثالث : الاستعمال ليظهر ما هو حقيقة وما هو مجاز ويظهر العام والخاص مثلاً .

(فما سلم مما يهجنه عند العرض عليها فهو المختار المستقيم) .

قال الجاحظ في البيان « ومتى شاكل اللفظ معناه وأعرب عن فحواه ؛ وكان لتلك الحال وفقاً ، ولذلك القدر لفقاً ؛ وخرج من سماجة الاستكراه ، وسلم من فساد التكلف ، كان قميناً بحسن الموقع ، وبانتفاع المستمع » [1] . والهجنة العيب في الكلام .

(وهذا في مفرداته وجملته مراعى لأن اللفظة تستكره بانفرادها فاذا ضامها ما لا يوافقها عادت الجملة هجيناً) .

في نسختي تونس ونسخة الأستانة « وجملة » عوض جملته والمراد بها مجموع الكلام لا الجملة في اصطلاح النحاة . قال عبد القاهر [2] : « انك ترى الكلمة تروقك في موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر كلفظ الأخدع في بيت الحماسة :

تلفتُّ نحو الحيِّ حتى رأيتني وجِعتُ من الإصغاء ليتا وأخدَّعا

فان لها ما لا يخفى من الحسن ثم انك تتأملها في بيت أبي تمام :

يا دهرُ قوِّمْ من أخدعيك فقد أضججتَ هذا الأنامَ من خرقكْ

« فتجد لها من الثقل على النفس ومن التنغيص والتكدير أضعاف ما وجدتَ لها هناك من الروح والخفة اهـ » .

ولم يبين الشيخ سبب ثقل هذه اللفظة في موضع وحسنها في الآخر لأنه أحاله على الذوق . وزعم ابن الأثير في المثل السائر أن سبب ذلك هو إفراد

(١) ص ٢٠ جزء ٢ المطبعة التجارية بالقاهرة سنة ١٣٤٥ .

(٢) ص ٣٧ دلائل الاعجاز طبع المنار .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الأخدع في بيت الحماسة وتثنيته في بيت أبي تمام وهو وهمٌ من ابن الأثير . والحق أن سبب حسنها في بيت الحماسة مجيئها مستدعاةً للكلام الذي قبلها حيث كان ذكر وجع الليت يستدعي وجع ما حوله وهو الأخدع فكان لفظ الأخدع فيه رشيقاً ، وهو في بيت أبي تمام مغصوب للقافية إذ لا مناسبة في استعارة الأخدع للدهر في هذا المقام إذ ليس في أحوال الدهر ما يكون الأخدع رديفاً له كما يؤخذ من كلام الآمدي في كتاب الموازنة [1] .

(وعيار الإصابة في الوصف الذكاء وحسن التمييز فما وجداه صادقاً في العلوق عمازجاً في اللصوق يتعسر الخروج عنه والتبرؤ منه فذلك سيما الإصابة فيه) . أي ان الذكاء وحسن التمييز يدرك بهما الوصف المصيب في العلوق أي في تعلقه بالغرض الموصوف المشخص منطبقاً عليه عمازجاً له لا تقصير فيه . والسيما بالقصر العلامة قال تعالى : «سيماهم في وجوههم» .

(تونس) محمد الطاهر ابن عاشور

«يتبع»

(١) ص ١٠٥ - ١٠٧ طبع الجوايب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net